رواية الحسناء

زنوبيا

تابع صفحة ٣٨٦

باي سرور اكتب اليك مرة ثانية ايها العزيز كورتيوس واخبرك كيف قضيت ايامي. وما اصبت من النجاح في مهمتي. ولكن قبلما ابتدي، عليّ ان اشكرك على ما رويته لي من اخبار روما في كتابك الاخير. ومع انني مسرور في هذه العاصمة فاستلامي الرسائل من الوطن يزيد في سروري وسأروي لك في رسائلي الآتية اخباري واحدث بورتيا بافكار فلسفية شأننا في محادثاتنا المعتادة فارجوك اذا بعدما تقراء كتابي ان ترسله اليها لتطلع عليه واعشم ان احكي لك قريباً اشياء كثيرة عن الادب في هذه البلاد. وعن مقابلتي لبضعة منتخبة من الرجال العظام. وما دار بيني وبينهم من الاحاديث لاني بعد وصول الملكة من سياحتها في ولاياتها البعيدة سأقصد جريكوس واطلب منه ان يقوم بوعده لي ويعرفني بلونجينوس الذي هو برفقة الملكة الآن. وعند مخاطبتي لهذا العلامة الكبير ساستخرج ما يسركم جميعاً. وكل ما هو مفيد وملذ. صار لي الآن مدة ايام في تدمر واصبحت عندي اشياء كثيرة لاخبرك بها. ولكن بدلاً من ان ارويها لك دفعة واحدة سارويها كل واحدة بفردها بحسب مدة وقوعها واظن هذا ما تريد

يصعب عليّ ان اخبرك كم كانت ليالي الاولى ملذة وهنيئة بعيد ذلك السفر الطويل. فمت وانا احلم بان اخي نجا وعاد الينا سالماً. وكنت اسمع غناء فوستا وصوت عودها يرنان في اذني. وعند الصباح باكراً وقف هانيبال العبد ببابي ينبهني بان ساعة الفطور دنت. فذهبت معه الى غرفة غير التي تعشينا فيها بل هي كرواق يوصل اليها مطل عليّ بضعة اشجار صغيرة وقائم على اعمدة دقيقة الصنع وقد تعرشت عليها النباتات فصيرتها اكثر جمالاً وبهاء. وهناك نافورة تدفع ماءها البلوري الى العلى فينزل بشكل يخلب الالباب وحول الرواق حتى آخر مرمى النظر، ارض خضراء اكتست بالزهور الجميلة: فكان المنظر في هذا الصباح جميلاً جداً. فقلت هذا خير جزاء لما لاقيت من حر الصحراء، ومشقة الطريق وتفاهات خيراً اذ رايت الطبيعة تبسم اليّ وقد فتحت صدرها لاتنهسا. وبينما كنت مشغولاً بهذه الهوا جس اذ شعرت بيد فوستا قد وضعت في يدي وصوتها الرخيم رنّ في

اذني وهي تحييني

— وجهك نضر يالوسيوس كهذا الصباح . فيظهر انك نمت نوماً هنيئاً وحلمت احلاماً شهية . والا فيكون اذاً هواء تدمر العجيب سبب هذه النضارة الظاهرة منك

— نعم نمت نوماً هنيئاً يا فوستا والذي اعتقده ان غناءك والنشودتك العبرانية هما سبب ذلك وليس هواء تدمر . لاني نمت ورنات عودك ونغمات صوتك الجميل تتردد في اذني فزادت في راحتي وهنائي . وجعلتني اتذكر احبائي واصدقائي واخصهم أخي كالبر نيوس . فتخيلته راجعاً لروما . ورأيت شبحك من بعيد حائماً حوله وصوتك ونغمات عودك الساحرة ترن بدون انقطاع . ان هذه يا فوستا لعلامات خير لي . كانها من عند اله . فيا حبذا ان ارى اخي واقبله — فاقبل به رومانيا حراً لا غش فيه .

— الآلهة تنيلك ما ترغب يا لوسيوس .

ثم دخل جريكوس وهو يقول :

— وانا اطلب لك هذا الطلب . على الالهة ترق لك . قد افتكرت كثيراً الليلة الماضية بمسألتك فوجدت ان قرارنا الاخير هو احسن حل لها . ساشتغل طول هذا النهار خارج البيت . وساسعى واجتهد حتى اجد لك من يمكنا ان نضع هذه المهمة الصعبة الخطرة على عاتقه واري في رجال اسرائيل مقدرة على تولي هذه المهمة لكنني لا اعرف الا نفراً قليلاً منهم

— ما زلت تنير طريقي من وقت لآخر . فقد انتهى نصف العمل لاني اعرف اسرائيلياً استوفى كل مطاليبنا . فقد تعرفت به وانا على ظهر السفينة التي جئت فيها الى بيروت بعد ان مررنا على آتيكا حيث نزل فحقيقة كل قطر هو وطن له لانه يعرف كل اللغات وكل اجناس البشر . وكل البقع . وزد على ذلك فيه كل دهاء اولاد جنسه مع نباهتهم وحماستهم وهو سائح من طبيعة حاله . ويباع لاي شيء يمكن ان يشترى . ومستعد للذهاب لكل محل يعتقد فيه مكاسب وفيرة يساعد بها في بناء اسوار اوروشليم وقد افترق عني وهو مصمم النية على اللحاق بي الى هنا حتى اراه فاشتري منه شيئاً . اذ انه سبق و باعني اشياء في هذه الصندوقة منها خاتمين مرسوم عليهما راسي زنوبيا واوديناتوس زوجها . واكد لي بانهما مثالا راسيهما حقيقة) وايتهما بهما وقلت — انظري اليهما يا فوستا . فاذا كانا حقيقة يشبهان رأسيهما تماً كد بانه صدق فيما قاله لي فنثق به فيما بعد

فقالت فوستا وابوها : جمال باهر ! لقد صدق معك فاننا نرى فيهما رأسي زنوبيا والملك اما صنعهما فكأنه صنع دقتريوس الصائغ الشهير

— انه لامر عجيب ان ارى سكان الاقاليم البعيدة عن العاصمة روما يعرفون عنها وعن الاشياء التي فيها اكثر من سكانها

فاجاب جريكوس = نعم تاكد ان اصحاب الفنرن الجميلة في روما معروفون في الاقاليم اكثر مما فيها والازياء التي تظهر فيها تستعمل هنا قبلما يستعملها النبلاء هناك . اما الخلمان فانهما نفيسان . وارى رأس اوديناتوس اقرب الى الحياة من رأس زنوبيا

فصرخت فوستا : = وهل للحجر والذهب ان ياتيا بصورة زنوبيا بجمالها الرائع وعظمتها المتناهية . فهذا الحجر يظهر جميلاً لك الان يا لوسيوس ولكن لما ترى الملكة وجهاً لوجه ترى الفرق . فتغير اعتقادك . ليتها كانت هنا الآن ! فان لغبائها عنا رنة اسى عظيمة تجعلنا في خمول وسكون

= اذاً البسي في اصبعك هذا ، هذا الخاتم الذي عليه رأس الملكة التي تحبينها كل هذا الحب . قدمت الي اصبعها الجميل لالبسها اياه فحاولت ذلك بكل لطف فلم افلح لان الخاتم كان واسعاً ! صغيراً جداً . فقلت لها = انه لا يريد اصبعك يا فوستا . فيظهر ان صداقتك مع الملكة عَلَى وشك التراخي

= لا . لا تجعل فكراً كهذا يتسلط عليك . ها محل لخاتم زنوبا في هذا الاصبع الآخر الذي فيه اور بليان فالبسي اياه يا لوسيوس واجعل جمالها يشع عليَّ منه)

قالت هذا ونزعت الخاتم الذي عليه رأس اور بليان وضربت به عرض الحائط لتفسح محلاً لخاتي . فالتقته انا ووضعته في اشرف محل في يدي اليمنى وقلت لابيها :

— امر غريب شجاعة بنات اليوم . فيظهر انهن عَلَى وشك الجلوس عَلَى رؤوسنا وهن لا يدرين . اما الخاتم فانا البسه يا فوستا لان الصورة التي عليه مع انها بشعة حقيقة فهي صورة ملكي وصديقي .

فضحكت فوستا ووافقت عَلَى اخذي للخاتم ثم دعتنا للمائدة لنتناول طعام الصباح . وكانت المائدة ملأ من الفواكه الشهية . وقد دار الحديث اثناء الفطور عن المدينة وغناها وعدد سكانها وقوتها وما سيكون لها من العز والسؤدد . وقد استنتجت من حديثهما بان آل البلاط مع عامة الشعب عَلَى اعتقاد واحد من ان تدمر لا يستهان بها وانها لا تهاب روما ولا بطشها اذا تصادم جيشاهما

ولما انتهينا من الطعام قام جريكوس وجعل يمشي ذهاباً واياباً في وسط الرواق . ثم فتح موضوع مهمتي وقال : طريقتنا بسيطة وظاهرة . فعليك ان تنتظر وصول صديقك

اسحاق فاذا اتى كان به . والا فعلينا ان نطوف حي الاسرائيليين لنجد غيره من يقوم بهذه المهمة . اما الان فاتركك والقي عبء تعريف البلدة وضواحيها اليك على فوسنا . لانها احسن من يتولى هذا العمل

— اذا كانت فوسنا ترضى بهذه الثقلة فانه لامر .....

فقاطعتني وقالت : — يسرك ! اليس هذا ما تريد ان تقول ؟ انه حقيقة يسرني انا ايضاً اذ يتسنى لي ان اظهر للروماني المتشامخ عظمة تدمر وسؤددها . واذا نزعت من رأس الروماني اعتقاده بانه كبير وعظيم فانه يصبح رجلاً مقبولاً . فعلى الرومانيين رجالاً ونساء ان يتجلوا باخلاق التدمريين فانها اقرب الى حسن العشرة والاجتماع هكذا انا افتكر و يفتكر معي ايضاً لونجينوس واسقف انطاكية المحترم فهل تقدر ان تخالفني في الرأي وهما من فائليه معي . اراك قد طربت . فلا عجب في ذلك فلونجينوس فيلسوف مجرب يعرف ما في الدنيا . وتخترقها عيناه مثلما تخترق افكاره تعاليم افلاطون الغامضة . اما الاسقف فلا مثيل له في المشرق . ووظيفته ليست اقل اهمية من اكبر مقام في انطاكية وتدمر . فهو الوحيد الذي يختار ليكون الحكم بين الخاصمين الكبار

اما الفيلسوف اليوناني لونجينوس فاقر باني احترم اقواله واحكامه . واستسلم اليه في جميع شكوكي في الادبيات والفلسفيات . اذ في الادبيات يوجد فلسفة . حتى وفي اللبس والمشي ! فلسفة الانسان واخلاقه واعتقاداته تعرف من هيئة لبسه وسيره . اما ما قلتيه عن الاسقف المسيحي فلا ارضى به . لان هؤلاء الاساقفة كما اظن يتداخلون كثيراً فيما لا يعنيهم . وعدا ذلك فاذا كان ما سمعته صحيحاً عن شدة وصرامة مبادئهم وتعاليمهم لما كانت في السفينة من رجل مسيحي فيكونون قد حادوا عن مراطهم المستقيم بتداخلهم في الامور . سررت جداً من اعتقادات ذلك الرجل . واني ما زلت اتحسر على فراقي اياه قبلما يتسنى لي الوقوف على كل اعتقادات مذهبه . صدقت اقواله من طريقة حديثه فقط . وبساطته . ومن وجهه الذي كان اكبر مؤثر في . فهذا الرجل واشباله يخدمون مذهبهم اكثر من هؤلاء الاساقفة

— انا لا اعرف كثيراً عن هذا الاسقف غير ان بل ما اعرفه عنه ان له تاثيراً كبيراً على البرنسيس جوليا . وعلى طي انها على وشك التصريح باعتناقها هذا المذهب المضحك الذي كله خرافات مضلله . واني لفي غاية التعجب من انتشارها بسرعة في ايامنا هذه . ولكن ها العربة قد وصلت . فدعنا نركب

فركبنا العربة . وانه ليخونني القلم في التعبير عما رأيته وتفرجت عليه في المدينة

وضواحيها . من المؤكد انك تعرف شيئاً عن المدينة من الكتب الموضوعة عنها . وبالاخص من الكتاب الذي ظهر اخيراً تاليف سرور بوس . غير اني اخبرك من الآن انه لا يوجد رجل حقود ذو غايات ومطامع شخصية مثل هذا الرجل . فاسمه فقط لعنة عند التدمريين الكرام ذوي المروءة والغيرة . نعم . لا ينكر ان غلطاتهم الوطنية كثيرة لكنهم لا يستحقون ما قيل عنهم في ذلك الكتاب من ضروب التشنيع المعيب ولهذا ساكتب اليك افكاري الخصوصية بكل حرية عن سياسة تدمر وحالتها ومستقبلها

فلما بلغنا ركبنا العربة . فحالاً سارت بسرعة وخرجت بنا من بوابة القصر الكبرى الى الشوارع والطرق المزدحمة . وكانت اشعة الشمس قد امتدت وشملت اغلب البقع فزادت في بهائها ورونقها . والقوم بين غاد ورائح وهم بالبسة جميلة تخلب لب الروماني . نعم انها لا تدل على انهم اكثر غنى منا غير ان الازياء والالوان المتنوعة تدل على انهم اكثر ذوقاً وعظمة . وبالاخص حاشية الملكة والمقربين اليها فاذا قلت ان سكان المدينة ينسجون على منوال الملكة في لبسهم لصدقت

ارى كل شيء هنا بهياً جديداً اكثر من روما . فبناء الجمهورية الذي يرغب كثيرون في حفظه في روما ونميره من ابنية الشوارع القديمة يسودها قتام ووحشة . هنا ارى ابنية جميلة ومفرحة كلها مبنية بالرخام . ونوافير الماء متفرقة متعددة تدفع مياهها الى العلى فتنزل وتبرد الهواء . جعلت المعابد وقصور النبلاء وتجار المدينة جمالاً فائقاً لتدمر لا يمكن لاي مدينة ان تفاخرها باجمل منها . فتخيل مدينة كهذه ملأ بقوم من بلاد الشرق المختلفة . وهم بالبستهم الغريبة وحيواناتهم التي نادراً ترى في بلادنا . اما هنا فكل لحظة تراها — من فيلة . وجمال . وبغل . وخيول عربية . وهي بلبسها الثمين فتخيل كل هذه الاشياء ومعها ترى من وقت لآخر منظراً من فرسان الملكة يسيرون على صوت ابواقهم المطربه فترى لمحة من الحياة والحركة في هذه المدينة

اما فوستا فكانت في سرور زائد لابتهاجي من هذه المناظر وجعلت تفتخر عليّ بها وعلى عاصمة الدنيا — روما . وما زلنا نسير بالمركبة على مهل لازدحام الطرق ولرغبتي بالتفرج على اعمال القوم واداباهم . فدكاكينهم المزدانة باحسن واغرب المصنوعات وطرق اقتناص البائع للشاري الهنئي وجعلت افكاري تسرح . وبينما كنت على هذه الحال اذا بصوت فوستا قد ارجع اليّ انتباهي يقولها آلان استعد لترى عظمة تدمر الحقيقة فعندما نلفت آخر هذه الطريق ليبارك فترى